ممتع كتاب ناصيف القزي .

لم أقرأ نصاً يشبه كاتبه بقدر ما يشبه نص ناصيف القزي ، ناصيفا . يشبهه شكلاً ومضموناً . في الشكل أتت أناقته ورهافته مرآة لأناقة ورهافة كاتبه ، وفي المضمون أتى ليقول تماماً ما يهجس به ناصيف ؛ يطرح تساؤلاته ولا يخجل من عجزه عن الإجابة ، إنه يبحث ويتساءل ويرمي علينا جملة من الليشيات التي هي من عندياته الثقافية والفطرية والاختبارية معاً .
كتاب ناصيف القزي :" سفر العودة ...وبعد ، فصل من ذاكرة " يعالج بشاعرية رقيقة مأساة حريق الجيه والدامور وتهجير أهاليهما ومعاناتهم في الأماكن التي لجؤوا إليها . إنه سيرة ذاتية وسيرة جرح من جروح الوطن ، بل سيرة الوطن كله . "فصل من ذاكرة " وما أدراك ما الذاكرة __حين تكون مكونة من دم ونار ؟ والذاكرة ليست خزاناً للحظات الزمن الهروب فقط ، بل هي خميرة الفكر الحاضر إذ ان الفكر هو تفاعل الذكريات ، ليس سردها ، بل الإصغاء لتفاعلاتها ، إنها الوسادة التي يتكئ رأسنا عليها ليطمئن أنه ما زال حياً . هي التي تشكل قولنا ؛ فبحسب الإوالية التي تحكم تفاعلاتها ، يأتي قولنا فلسفة أو شعراً أو أدباً أو.... لولا الذاكرة لانتفى الزمان وانتفت الحياة ، أوانها أصبحت المكان حيث العودة إليه لا بد منها ، والذي كلنا إليه والذي كياننا إليه ، إنه أفق النظر .
ما لنا وللذاكرة الآن ، أعود إلى فعل القراءة ، وهنا لا بد من توضيح لخبرة أكسبتني إياها تجاربي في هذا المجال . هذه التجارب علمتني أن أخرج من مازوشيتي ؛ كنت دائماً أكابر وأقهر نفسي لأكمل قراءة نص لا أستسيغه ولا يشدني ، كنت أبحث عما شد الآخرين وأعجبهم ، بكلمة واحدة ، كنت أمارس نوعاً من المازوشية العقيمة ، وقد ساعدني نضجي ، ربما ، وقراآتي أيضاً أن أتخلص من هذا المرض لأقرأ ما أستمتع به إن كان ذلك فكراً أو شعراً أو أدباً أو مقالً صحافياً أو ... لكن لماذا أقول ذلك ، هل لأتكلم عن نفسي ؟ لا ، أقوله لأعود إلى كتاب ناصيف القزي الذي قرأته دفعة واحدة ، من دون توقف . شدني هذا الكتاب وخضني ؛ لم تؤثر بي الأحداث التي وصفت في الكتاب لأني عشت قسماً منها إذ انني كنت من مستقبلي مهجري الجيه والدامور في خليج جونيه ، لقد رأيت المأساة بعيني وعشتها بأعصابي . لكن ما استوقفني في الكتاب وخضخض كياني بكامله هو المقابلة التي جرت بين الكاتب وصلاح البيطار في فرنسا (ص. 117) . يسأل الكاتب :" ما هو موقعي وأنا النصراني العربي من مشروعك القومي ؟" ويجيب البيطار "بكل بساطة وهدوء :" إن هذه المسألة هي المعضلة التي اعترضتنا منذ التأسيس ... آمل أن نجد لها مخرجاً في المستقبل ."في الهامش يوضح ناصيف أن ميشال عفلق اعتنق الإسلام وأخفى ذلك حتى قبيل موته .
هذا الحديث مع صلاح البيطار ، يعلق عليه ناصيف القزي بسرعة وكأنه حادثة من أحداث الكتاب الكثيرة . يبدو أنه لم يستوقفه كما استوقفني . من ناحيتي أعتبره كل الكتاب أو الأساس الذي يقوم عليه كل النص وبكل تساؤلاته . " إن هذه المسألة هي المعضلة التي اعترضتنا منذ التأسيس ." يا له من جواب يلقي وجودي في العدم ، يا له من جواب يهز كل كياني ، يا له من جواب يرميني في مهب الريح . من أجاز لصاحبه أن يعنفني ؟ من أذن له أن يشوه العروبة ؟ من سمح له أن يعزلني ؟ من نصّبه ولي العروبة ومحدد مكوناتها ؟ من أوهمه أن إسلامه هو أهم عروبة من مسيحيتي ؟ أسئلة كبيرة وعديدة طرحت في رأسي بعد قراءة هذه الأسطر . إنها المكان الوحيد الذي أوقفني عن القراءة للحظات قبل أن أطوي الصفحة وأتابع . طويت صفحة الكتاب ،

لكن إجابة البيطار لا تزال تطن في رأسي ، وقررت بعدها أن لا مستقبل للعروبة إن لم تغير مضمونها ، إن لم يستقم مفهومها . ستظل خاضعة لأمواج الإيديولوجيات والتيارات السياسية ، ستفرغ من لبها ستصبح خالية من أي مضمون سوى التشبيح والتهويل والعنف والأصولية .

أعود إلى الكتاب ، إلى سفر العودة ...وبعد ، إلى فصل من ذاكرة لأقول أنه
نصوص كتبت بالدم واللحم كما قال كاتبها ، مرة أمامي . إنه نصوص تطال الخاص العام ، الحاضر والماضي ؛ تعرض أحداث الخاص في الحاضر وتحلق في سموات العام وتغوص في التاريخ لتطرح أسئلة كبيرة في الموت والحياة في الوجود والعدم في الحرية والعبودية ... في كل ما يختلج في الفكر والخاطر ، إنه نصوص مثقف قرأ الكثير واستوعب الكثير ومع ذلك يقر أنه ما زال عاجزاً عن إشباع كل الليشيات بإجابات قاطعة . وتبقى ليشيات ناصيف القزي ، المتأثر بكمال الحاج ، هي الأسئلة والإجابات معاً . حيث لا جواب يكون السؤال هو أيضاً الجواب وربما كان أهم من الجواب .

الهام منصور .

هل يمكن للصدى أن يكون صوتاً أصيلاً ؟

إنه "منتدى المرأة العربية والنزاعات المسلحة" . يا له من منتدى ، لا بل يا
له من مهرجان جُندت له أكبر جوقة إعلامية ، كيف لا ، والمنتديات هن السيدات " الأوليات" في بلادهن . فمنذ حفل الافتتاح في "بيال" شعرت الإنسى العادية أنها غير معنية بالموضوع أو غير مرغوب بها ، لأنها لم تدعَ ، وبالتالي لم يسمح لها بالمشاركة ، وهو أمر طبيعي إذ أن الإنسى العادية هي أكثر جدّية وأقل مهرجانية في التعاطي بأمورها الإنسوية . فالمهرجان يقوم عادة على علاقة شيء بشيء ، أي على " واو " الربط وليس على ما تربط هذه "الواو" ، تماماً كما يحدث عندنا في العالم العربي عندما ننظم ندوات للفلسفة حيث تأتي عناوين هذه الندوات على الشكل التالي : الفلسفة والتنمية ، أو الفلسفة والبيئة ، أو الفلسفة الشؤون الاجتماعية ، دائماً الفلسفة وال.... وقليلاً ما نقع على ندوة مخصصة للفلسفة كفلسفة . هكذا تقع تلك الندوات في فخ "الواو" وتنسى الأساس الذي هو الفلسفة و تنتهي كما يقول المثل :" تمخّض الجبل ...." لماذا ؟ لأن الفيلسوف الحقيقي في تلك الندوات هو إما مغيب وإما غير مسموع لأنه حين يتكلم يكون كمن يغرّد خارج سربه تماماً كالإنسى العادية في المنتدى الذي أقيم مؤخراً في بيروت والتي لو سمح لها أن تتكلم لكانت غردت خارج السرب المجنح ، المحلق عالياً، لأنها هي صاحبة القضية ولأن وجهها عارٍ وقدميها حافيتان .

ترددت كثيراً في الكتابة حول المنتدى هذا لأنني كنت أتوقع ردوداً كثيرة من قبل
الإنسى ، الإنسى العادية التي تكلمت المنتديات باسمها ، أو من قبل الجمعيات النسائية التي تدعي

الدفاع عن الإنسى وحقوقها . انتظرت ولم أسمع رداً واحداً ، والأمر لا يجوز السكوت عنه . هذه الجملة الأخيرة كانت عنواناً لمقالة كتبتها منذ حوالي عشرين عاماً وكان الموضوع سرقةً قامت بها إحدى الأستاذات في الجامعة اللبنانية ، والسرقة هنا هي سرقة نصوص . فتلك الأستاذة كانت قد سرقت أكثر من ثلاثين صفحة من كتاب لي ونثرتها مبعثرة في كتاب لها حيث فقدت كل معناها وترابطها المنطقي داخل النص الأصلي . باختصار لقد صادرت تلك الأستاذة المحترمة نصي لتعيده مشوهاً . أنها لم تكتفِ بالمصادرة بل شوهت ما صادرت وذلك ليس عمداً بل لأنها عاجزة عن أداء ما ليس لها أصلاً ، ما لم ينبع من صلب فكرها ومعاناتها .

لماذا عاد هذا العنوان إلى ذهني مجدداً ؟ عاد وببساطة كلية حين كنت أتابع على شاشة التلفزيون المنتدى الذي عقد مؤخراً في بيروت والذي احتل شاشات التلفزيون كأنه "الحدث " . عاد ذلك العنوان حين استمعت إلى إحدى السيدات المنتديات تدلي بمداخلتها وهي تقرأ نصاً بدا من الواضح أنه ليس نصها هي ، لأنها كانت تقرأ كمن لا يفهم ماذا يقول ، مع العلم أن ما كانت تقرأ ينسجم تماماً مع ما تريد قوله هي . حين سمعتها أصررت على متابعة أعمال المنتدى ودائماً من على شاشات التلفزيون وليس مباشرة . ماذا وجدت ؟

حقاً كان المنتدى مهرجاناً استعراضياً تم خلاله مصادرة القول الإنسوي من قبل سيدات يتربعن على عروش الملك وسدات الرآسة بكل درجاتها من رئاسة أولى وثانية وثالثة و... أقول مصادرة وأنا مسؤولة عما أقول ، لأنه لا يكفي أن تكون فلانة زوجة فلان من الرؤساء أو الملوك كي تصبح ناطقة باسم الإنسى . لا بل أكثر من ذلك، فهي لا تستطيع أن تكون صوت الإنسى العربية بالضبط لأنها زوجة هذا الرئيس أو ذاك ، ولأنها بصفتها تلك لا يسعها إلا أن يكون صوتها تمثيلاً على صوت زوجها صاحب السلطة السياسية . يعني أن ما تقوله لا يختلف عن ولا يخالف قول زوجها صاحب السلطة عليها وعلى بلاده وهو قول ذكوري في عالم عربي .

أن يكون صوت كل سيدة أولى في العالم العربي (وفي كل العالم ربما) تمثيلاً على صوت زوجها فهذا أمر لا دخل لنا فيه ، لكن أن تعتبر أن صوتها هو صوت الإنسى فهذا ما نعترض عليه . فإذا كان زوجها في السلطة لأن "الشعوب" أو "المجالس التمثيلية" قد اختارته ، فهذا يخوله أن ينطق باسم شعبه ، أما هي فلتسمح لنا بأن نقول لها إنها لا تمثلنا بل هي زوجة من " يمثلنا " وهو يمثلنا في قضايا دون أخرى كقضية الإنسى مثلاً ، ونحترمها على هذا الأساس . فلتترك القول عن الإنسى وفي الإنسى لمن بحثت واشتغلت وعانت في ومن هذا الموضوع لأن صوتها يكون صوتاً أصيلاً يعبر عن ذاته وليس صدى لغيره .

ربما اعترضت المنتديات وقلن إنهن مقتنعات بما يقلن وأجيب : أهنئكن على براءتكن والبراءة صفة الطفولة . أما إذا كن غير مقتنعات وهذا يضعهن في موقع لا ينسجم مع موقعهن الحالي فليجرؤن على الاعتذار والاعتراف بالخطأ وهما من شيم الإنسان الناضج والواثق من ذاته .

أخيراً لا بد من بعض الملاحظات حول هذا المنتدى وكل المنتديات التي تعالج موضوع " المرأة " . أبدأ بالتسمية ؛ فطالما أن الإنسى تقبل بأن تسمى "امرأة" فهذا دليل على قبولها بالدونية إذ إن مصطلح " امرأة" هو تأنيث مصطلح " امرئ" كما أن مصطلح "المرأة " هو تأنيث مصطلح "المرء" ، والمرء هو النكرة وقد سبق وبينت ذلك في إحدى دراساتي حول الموضوع . إذاً فطالما تقبل الإنسى أن تسمى "امرأة" فهذا دليل على قبولها أن تكون نكرة .والتسمية ، كما هو معلوم ، هي التعريف ، والشيء لا ينوجد إلا بتعريفه ، والإنسى التي هي "امرأة" وترضى بذلك ، لا تستطيع أن ترتفع إلى مستوى المدافع عن حقوق الإنسى لأن " المرأة" لا حقوق لها ، فقط الإنسى لها حقوق مساوية لحقوق الرجل .

أنتقل إلى القول : هنا أعتبر أن " المرأة " لا حاضر لها لأنها من دون ماضٍ وهذا الحاضر الذي سيتحول إلى ماضٍ سيجعل "المرأة " من دون مستقبل . كيف ؟ لا يتشكل التاريخ أو الحضارة بشكل عام إلا من تراكم الآثار أي من تراكم القول في كل تجلياته من كتابة ورسم ونحت وبناء وموسيقى و... والحاضر الذي نعيش فيه قائم على الآثار التي راكمها الرجل لأنه قال قوله الخاص المميز . لهذا السبب كلنا نعيش الحضارة الذكورية ونقول القول الذكوري لأنه القول السائد . هنا يبرز دور الإنسى إذا أرادت أن يكون لها وجود فعلي وهو الوجود الذي سيحقق لها كل مطالبها بالمساواة الحقوقية مع الرجل . إذا أرادت أن توجد فعليها أن تقول ، لا أن تردد كالصدى ، عليها أن تقول قولها الخاص المميز المختلف ولهذا القول المختلف أسس يقوم عليها وهي أسس حاولت إيجاد بعضها في دراسة نشرت سابقاً ولا مجال للدخول فيها الآن.

عذراً زوجات أصحاب الجلالة والسمو والسيادة والفخامة والرئاسة بكل درجاتها،عذراً سيداتي ، الصدى لا يمكنه أن يكون صوتاً أصيلاً .

إلهام منصور .

معالي وزير الثقافة الأستاذ غازي العريضي المحترم .

أرجو أن تقبلوا اعتذاري عن المشاركة في معرض فرنكفورت الدولي وذلك للأسباب التالية :

أولاً : تبيّن لي بعد قراءة برنامج المعرض أن الأسماء المطروحة والتي اختيرت هي كلها جيدة ، ، لكني أظن أن توزيع النشاطات على هذه الأسماء لم يكن كله جيداً ولا دقيقاً بمعنى أن هناك أشخاصاً لم يسبق أن قرأنا لهم نصاً واحداً في مجال معين ونراهم مشاركين في ندوات تتعلق بهذا المجال . فلو دقق النظر في السير الذاتية التي أرسلت إليكم ، لكان تم التوزيع بشكل أفضل ، أنا واثقة من ذلك .

ثانياً : أنا روائية وباحثة ، باحثة بشكل خاص في مجال القول "الإنسوي" ، (قول المرأة) ولي فيه طرح جديد لم يسبق لأحد أن طرحه ، ولست ناشطة في حركة نسائية ، والدور الذي أوكل إلي ، تستطيع أي ناشطة مبتدئة أن تقوم به على أحسن وجه . ولا أرضى أن أشارك بمهمة أقلّ من إمكاناتي وكفاءاتي وقدراتي .

ثلثاً :أقترح إلغاء كل الندوة الأخيرة حول "وضع المرأة وحقوقها في العالم العربي" لأنها ندوة ستظهر تخلّف العرب ، ومن الأفضل ، في مناسبة من هذا النوع ، أن نظهر وجهنا الإيجابي ومساهماتنا الحضارية . هذه الندوة ، وهي خاتمة الندوات ستقفل المعرض على صفحة سوداء من الأفضل تلافيها .

أخيراً أتوجه إليك بالسؤال التالي : هل تقبل أن تمثل بلدك بدور أقل من إمكاناتك وكفاءاتك الشخصية ؟ إن أجبت بنعم ، وأنا أشك في ذلك ، فسأستمر بقبول ما أوكل إلي وإن أجبت بلا فستتفهم اعتذاري .

ولكم فائق الاحترام والشكر .

بيروت في 29-7-2004

إلهام منصور